الخطاب الصحافي الاصلاحي للأمير خالد(1875-1936) مقاربة تحليلية

The Reformist Journalistic Discourse Of Emir Khaled (1875-1936 Analytical Approac

عبد الحميد ساحل[1]

[1]جامعة الجزائر3 (الجزائر) sahel.abdelhamid@univ-alger3.dz

تاريخ الإرسال: 2021/11/26 تاريخ القبول:2022/06/13 تاريخ النشر: سبتمبر/2022

الملخص:

إذا كان الأمير خالد(1875-1936)، حفيد الأميرعبد القادر، أحد أهم رجالات الحركة الوطنية السياسية بالجزائر في الربع الأول من القرن العشرين، فهو أيضا يمثل وجها بارزا من وجوه النخبة الجزائرية المثقفة آنذاك انطلاقا من خطابه السياسي في السياق الاستعماري. لكن مقاربتنا التحليلية والبحثية تحاول الكشف عن ملامح خطاب فكري إصلاحي ساير نضاله السياسي في فضاء نشاطه الصحافي، وهذا من خلال تلك النصوص التي أنتجها عبر صحيفة (الإقدام) في طبعتها العربية وقسمها العربي ما بين 1920-1923. إنه جانب مهم ارتأينا الوقوف عنده واستقراءه.

لقد توصلنا إلى تحديد معالم لهذا النوع من الخطاب الصحافي وفي بعده الإصلاحي عبر رؤيته لأساليبه وأدواته، ودلالة جوانبه الأخلاقية والدينية والاجتماعية والثقافية، في بيئة استعمارية مناهضة لخطاب الإصلاح والتحرر وضاغطة إزاء الصحافة الجزائرية و رجالاتها.

الكلمات المفتاحية : الأمير خالد – الصحافة الجزائرية – الخطاب الإصلاحي.

Abstract:

If EmirKhaled (1875-1936), the grandson of Emir Abdelkader, was one of the most important persons in the national political movement in Algeria in the first quarter of the twentieth century, then he also represented a prominent figure of the Algerian elite at that time, based on his political discourse in the colonial period.However, our approach tries to reveal features of a reformist intellectual discourse that pursued its political struggle using his journalistic activity, among those texts that he published in the newspaper (L'Ikdam) in its Arabic edition and its Arabic section between 1920-1923. We could identify the benchmarks of this type of journalist discourse and its reformist dimension through his vision of its methods and tools, and the significance of its moral, religious, social and cultural aspects in a colonial environment.

Key words : EmirKhaled, Algerian press, Reformist discourse

المؤلف المرسل عبد الحميد ساحل ، الإيميل المهني :sahel.abdelhamid@univ-alger3.dz

مقدمة:

لم يمنع النسق الاستعماري من بروز تحديات فكرية جزائرية في مرحلة ما بعد المقاومة المسلحة (التي سادت تقريبا كل فترة القرن التاسع عشر بعد احتلال الجزائر سنة 1830) .

كانت إحدى سمات التحدي الفكري تتجسد في نخبة مثقفة مرتبطة بالبعدين: السياسي والإصلاحي(بالمعنى الديني والثقافي). كما كانت حقبة العشرينات من القرن الماضي تتميز بحركية سياسية وإصلاحية فاعلة، حيث شهدت بروز نخبة اصلاحية مع إصدار صحيفة المنتقد سنة 1925 لصاحبها الإمام عبد الحميد بن باديس، مما سمح بتبلور خطاب اصلاحي عبر فضاءات صحفية أبرزها: صدى الصحراء 1925، وادي ميزاب سنة 1926، الاصلاح 1927، البرق 1927.

لقد كان الخطاب الإصلاحي، يحمل شحنة دلالة التجديد والتغيير وإعادة الأمل في نفوس الجزائريين، كما شكلت الصحافة وسيطا هاما و مساحة تعبير لمحاولة بلورة أفكار هذا النوع من الخطاب و كذلك السعي لبثها في وسط المثقفين الجزائريين المعول عليهم مستقبلا، خاصة و أن ذلك المسار كان في سياق بيئة تطغى عليها السياسة الإيديولوجية الاستعمارية التي كرست مظاهر التخلف لدى الجزائريين بمعناه الحضاري الشامل عبر منظومة تعليمية لم تنتج فئات او نخبة مثقفة فعليا. إنما غالبيتها تمثلت في فئات متعلمة لتكون سندا إداريا ثانويا في تسيير شؤون الجزائريين على الخصوص . [1]

واذا كان الأمير خالد (1875-1936) [2] قد تم تناوله من الناحية التاريخية في السياق المجابه لهذه السياسة الإستعمارية، فإن ما يلاحظ، هو التركيز على الخطاب السياسي الوطني المنتج من طرفه في فترة نشاطه وحركيته السياسية و الصحافية التي بدأت تطفو فعليا سنة 1919 بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. إن توجهات اهتماماتنا البحثية جعلتنا نستهدف جوانب فكرية إصلاحية أخرى تستدعي الكشف عنها، إبرازا لرؤية أخرى لأحد الرجالات السياسية في الجزائر الذي أثر في مسار الحركة الوطنية في الربع الأول من القرن العشرين .[3]

كانت جريدة (الإقدام) التي تأسست سنة 1919 باللغة الفرنسية بمدينة الجزائر، هي المنبر السياسي التي عبر من خلاله الأمير خالد عن مطالبه السياسية و رؤيته للوضع الإجتماعي والاقتصادي للجزائريين، لكن توليه مسؤولية الجريدة فيما بعد دفعه لأن يؤسس الطبعة العربية لها سنة 1920 وإدارة رئاسة تحريرها لغاية توقفها في سنة 1923[4] بسبب انسحابه من الحياة السياسية وإجباره على مغادرة الجزائر، ونفيه ثم إقامته الجبرية بمصر (الاسكندرية). إن القسم العربي من جريدة الإقدام كشف لنا بعدا آخر للخطاب الصحافي له، تمثل خصوصا في الأبعاد الفكرية الإصلاحية، ولهذا فالتساؤل المحوري لإشكاليتنا يكون إذن كالتالي :

ماهي الأبعاد الموضوعاتية للخطاب الإصلاحي للأمير خالد التي تضمنها نتاجه الصحافي عبر جريدة الإقدام الصادرة باللغة العربية مابين 1920-1923 ؟

تجاوبا مع طبيعة مقاربتنا البحثية التحليلية وهدفها، عمدنا إلى الإستئناس بمنهج التحليل الكيفي، زيادة عل على أن مادة مجتـمع بحثنا عبارة عن وثائق أساسية مسـتخلصة من النتاج الصحافي (النصوص الصحافية) وبالتالي إن طبيعة (الخصوصية الرئيسية للمناهج الكيفية تتأتى من كونها متضمنة للمحور التأويلي (التفسيري) وللمقاربة الفهمية). [5]

ومن خلال أداة تحليل المحتوى الموضوعاتي للنصوص الصحافية اعتمدنا على وحدة الموضوع في عملية التصنيف، التي تستدعي قراءة متأنية واستقرائية لها، قصد كشف توجهات الخطاب الفكري الإصلاحي للأمير خالد، بمعنى أن تحليلنا يستند إلى العنصر القائم بالاتصال في سياق العملية الإعلامية، أي المقالات التي وقعها باسمه الخاص أو اسمه المستعار وهو "خادم القوم"في وسط جزائري خلال الفترة الإستعمارية، لهذا فإن مقاربتنا لا تستند الى المؤشرات الكمية إلا في حالة وجود ضرورة دلالية معينة لذلك، و كما يقول ألبير kient: (إن نفس الجملة يمكن أن تحمل مواضيع عديدة، ومقال مكون من فقرات عدة بإمكانه أن يتضمن موضوعا وحيدا ...). [6]

كما تطلبت طبيعة مقالنا التحليلي الإستفادة من منهج البحث التاريخي بإستحضار السياق السياسي الاستعماري لتلك الفترة التاريخية، خاصة في الربع الأول من القرن العشرين، مع تتبع أيضا المسار النضالي السياسي للأمير خالد آنذاك، لأنه لا يمكن فصل النص الصحافي، الذي هو بذاته وثيقة تاريخية، عن سياقه الزمني وعن القائم بإنتاجه . [7]

بالتالي من الناحية العلمية، حصر المادة البحثية لهذه المقاربة التي هي بذاتها مصادر أصلية وأساسية تعتبر من المتطلبات المساعدة في استخلاص أبعاد الخطاب مباشرة منها، هذا ما يمكن ويساعد في قراءة وتحليل المقالات الصحفية المنتجة من طرف الأمير خالد ما بين 1920-1923، أي في فترة صدور الطبعة العربية والقسم العربي لصحيفة الإقدام، وكانت عينة الصحف القصدية التي خضعت للتحليل والاستقراء قد شملت 22 عددا، وهذا تجاوبا مع مادة التحليل (الرسالة الإعلامية) المتضمنة للجوانب الموضوعاتية التي تخدم اشكالية المقاربة.

1- البعد الموضوعاتي للخطاب الإصلاحي:

من خلال مقاربتنا التحليلية الكيفية للنصوص الصحافية المنتجة من طرف الأمير خالد في جريدة الإقدام ,في طبعتها العربية وقسمها العربي، فقد حاولنا تحديد عناصر موضوعاتية أساسية متضمنة في طبيعة الخطاب الإصلاحي، وتتمثل في الأبعاد التالية :

1.1- أساليب الإصلاح ووسائله:

إن وسائل الإصلاح والتغيير ظهرت أبعادها بشكل ملحوظ من خلال مختلف الكتابات الصحافية في جريدة " الإقدام، سواء تلك التي حررها الأمير خالد، أن تلك كتبها محررون آخرون. لكن ما لاحظناه في مضمون أفكار الأمير خالد هو التأكيد على أدوات ووسائل ملموسة، كالصـحافة والتعليم والجمـعيات،

أو العمل النفساني الأخلاقي الداعي إلى إعـادة الأمل وتنويره في قلوب الجزائريين، إضـافة إلى التأكيد على مبدأ الاعتماد على النفس في مختلف الأمور.

في شهر مارس 1922 ظهر شعار قرآني تحت عنوان « الإقدام »، وهو قوله تعالى: « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله » وبهذا يكون قد قدم مبدأه كباقي الإصـــلاحيين الذين سبقوه، خاصة من الجزائريين.

فكان مدركا للدور الحساس الذي يمكن أن تؤديه الصحافة في النضال الإصلاحي الوطني، حيث قام بحملة إعلامية استمرت شهورا، قصد إنشاء جريدة أخرى غير « الإقدام » لكي تكون يومية عربية فرنسية. ويمهد لها بمقال بعنوان « الجرائد ومنافعها »، أين يوضح فيه كيفية تأسيس الجرائد ودور الإشتراك المالي في ضمان موارده المادية، ويضيف بأن الصحافة هي المرآة العاكسة للافكار التنويرية، وعبرها تتم متابعة الأحداث والمجريات العالمية، وبالتالي ببين توجهها الإصلاحي يقول :

«لا يخفى على كل ذي لب المنافع الناتجة من الجرائد وقدرها عند جميع الأمم الراقية، إذ هي الناشر للأفكار والمخبرة عن كل ما يحدث في العالم من الأمور ... وهي ميدان بث المعارف والاختراعات المؤثرة... ولسان الأمم والدول الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر والمرشد للخير ... وبما أن الجرائد منافعها عديدة لا تنكر فمن الواجب إذن على الأهالي مساعدة كالجريدة تظهر ومعاضدتها بالاشتراك فيها أو بشتراء أسهمها... [7]. وهو لا يكتفي بهذا، إنما يدعو إلى ضرورة إنشاء جمعية تكون نواة للشركة المالية المؤسسة لهذه اليومية، التي علق عليها آمالا كبيرة قصد الإصلاح والمطالبة بحقوق الشعب الجزائري المقهور يقول في هذا، وفي نفس المقال [8] «... قد اتضح الآن نفع و إنشاء جريدة عربية فرنساوية يومية وما هو المأمول من همم أهل الغيرة وقبل المبادرة بالعمل وتأسيس جمعية الشركة. نرجو من قراء ومشتركي « الإقدام » القادرين أن يخبرونا كتابة عن عدد الأسهم ... نرجو تلبية طلبنا لما فيه من فوائد الإصلاح والأخذ بيد شعبنا الضعيف. ».

وتستمر الحملة الإعلامية لغاية شهر ديسمبر 1921، ويكتب آنذاك أن مشروع الجريدة اليومية المختصة بالدفاع عن حقوق المسلمين الجزائريين جاهز ولم يبق غير تأسيس مجلس إدارة شركتها، فيقول:«...وفقت المقادير الربانية إلى نيل أرب المؤملين من إحداث جريدة يومية عربية فرنساوية على نمط الجرائد المحلية مع خاصية تحمد، ألا وهي المدافعة بدلائل وحجج دامغة وسياسة عالمية عن حقوق مسلمي القطر الجزائري.. ». ولكن بعد تتبعنا للمسار النضالي للأمير خالد، لم تظهر هذه اليومية التي كان يعول عليها كثيرا، ويعلق عليها آمالا، فلماذا ؟.هل كانت هناك ضغوط إدارية استعمارية ؟ أو هل تراجع الأفراد المعول عليهم في الإسهام لتأسيس هذه الشركة المالية المنتظر قيامها بتمويل الجريدة ؟ أم أن المشروع هذا توقف بسبب النشاط السياسي الموازي لنضال الأمير خالد؟ [9] وهل يمكن القول بالفعل أن

السياق القانوني الاستعماري يفسر وجود عراقيل للممارسة الصحفية آنذك؟ فمجرد وجود صحفة باللغة العربية في الجزائر يشكل صورة من صور التحدي وحت النضال، ويرى الدكتور زهير إحدادن أن السلطات الاستعمارية كانت تعتبر الصحافة المكتوبة بالعربية أجنبية طبقا للمادة 14 من قانون حرية الصحافة الصادر سنة 1881، حتى الصحافة المكتوبة بالفرنسية عرفت نوعا من الرقابة من خلال وجود بنود في هذا القانون سمحت بوضع عراقيل أمامها، من ذلك المادة 06 التي تشترط على المسؤول الإداري الجنسية الفرنسية [10] .

وسنة بعد ذلك، أي في 1922م يوجه نداءات أخرى، ولكن هذه المرة في سبيل بقاء جريدة "الإقدام" في الساحة الصحافية والسياسية، ويبدو أنها كانت تعاني ظروفا عويصة،حيث يقول: "إن كنتم تريدون حياة أمّتكم، وأن يكون صوتها مرفوعا فأيدوا هذه الجريدة الحرة الوحيدة لهذه البلاد" [11].ثم بقي الأمل في إنشاء جريدة للدفاع عن حقوق الجزائريين شاغلا له حتى في سنوات المنفى الإجباري، حينما كان بمصر. ففي سنة 1925 كلف أحد المتعاطفين مع الجزائر وشعبها: السيد سبيلمان (Spielman بالعمل على إحياء مشروعها [12] والنشاط الصحافي له، خاصة في القسم العربي من " الإقدام "جعلنا نكتشف فيه شخصية مثقفة متشبعة بالثقافة العربية – الإسلامية ومتقنة لغتها. وكثيرا ما يروى عن بلاغته وفصاحته في الخطب التي كان يلقيها في الاجتماعات، أو من خلال المحاضرات التي كان يلقيها بحضور نخبة من المثقفين الجزائريين، أمثال الإمام عبد الحليم بن سماية، وعمر بن قدور الجزائري الذي كان محررا هو الأخر في " الإقدام ". [13] كما انتقد الأمير خالد سياسة التضييق الممارسة ضد الصحافة الجزائرية آنذاك, وأبرز مثال على ذلك موقفه المعارض لتفتيش جريدة (الصديق) لصاحبها محمد باكير, والذي كان يرأس تحريرها في تلك الفترة المولود بن محمد الزريبي, خاصة وأن الصحيفة ذات منحى اخباري اقتصادي وليست سياسية كما طلب من الحاكم العام التدخل في هذه الحادثة التي هي إهانة كبيرة .كتب قائلا: "إن –الصديق – جريدة إقتصادية ليست سياسية إذ لم تشتغل منذ نشأتها بمسائل السياسة الداخلية، فهي ليست بجريدة دفاع بل صحيفة إخبارية اقتصادية ...فهل من العدالة والإنصاف بل من الإنسانية إهانة أربابها وهتك حرمتهم ...وهل من العدل والقانون التفتيش من غير أمر السيد قاضي الإستنطاق ..." [14].

وفي سبيل إعادة الأمل لهذا الشعب والنهوض به، نراه يوجه نداءات حارة يبصر بها المثقفين الجزائريين بدورهم المنتظر في البلاد. فمنها مثلا ذلك النقد الموجه لأحد السياسيين الإصلاحيين بتونس، داعيا له الإسهام في تنوير أبناء الجزائر أو السير بإخلاص مع أبناء تونس، يقول :« ... إن كنت حقا من أهل الغيرة الصادقين فسر مع القوم بإخلاص ولا تخالفهم أوأقدم إلى وطنك ومسقط رأسك، لأنه في حاجة لرجال ماهرين صادقين يبتغون مرضاة الله ورسوله، ويضحون أنفسهم في سبيل إنقاذ الأمة من غياهب الجهل والوصول إلى حقوق الإنسان والحرية... »[15].

إذا كان ثمن التغيير والإصلاح يقتضي التضحية، فعلى الفئة الــمتنورة، وحتى النخبة التي تخرجت

من المدارس الإستعمارية، أن تعي هذه الحقيقة. جاء في افتتاحية " الإقدام " العدد (101) :« كما شرعنا في السعي لإصلاح الحالة العام توسمنا المساعدة من طرف المتنورين الذين تخرجوا من المدارس الفرنسوية وقد وجدنا منهم المخلصين ولكن يعوزهم الجسارة والإقدام حيث لم يعلموا أن حياة الأمة بتضحية أفراد منها فإلى متى يا أبناء الوطن ونحن في هذه الغفلة والإحتقار؟ إلى متى هذا الكسل والفشل إلى متى ونحن نسبح في ظلمات الجهل ؟... [16].وتثبيتا لهذه الفئة على قيم الصبر والإجتهاد في مسار الإصلاح ,يستأنس في خطابه بالمرجعية الأخلاقية الإسلامية من خلال مقاله المعنون (ولكم في رسول الله إسوة حسنة) .حيث يستقي نبذا من سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) في عزيمته في تبليغ الرسالة والقيام بأعباء ترقية الشعب العربي , بالرغم من المشاق التي كابدها حتى كانت كلمة الله هي العليا ويعتبر مجريات السيرة هذه عبرة وموعظة لمن أراد . [17]

ومن أهم المبادئ الفعّالة في خطاب الإصلاح، مبدأ الإعتماد على النفس. ويستمد الأمير خالد سنده من أمثلة الشعوب الضعيفة التي تحسنت أوضاعها، وغيرت من حالتها، وحتى أن بعضها خرج من نير الاستعمار.حينما ندرك ما لهذا المبدأ من أهمية آنذاك يمكن أن نسير وفق خطة إصلاحية عملية، لها وسائلها وأدواتها. تساعد في تحسين وضعية الشعب الجزائري المقهور، الخاضع لسياسة استعمارية، فرضت قانونها الخاص، غير الإنساني والمعروف بقانون الأهالي. إن إيمان الأمير خالد و أمله في الإصلاح والتغيير المستقبلي وحتى في التحرر لقوي .كان يرى أن فكرة الحرية بدأت تأخذ مجراها بين الشعوب الإسلامية، و أن وضعية الجزائر آنذاك دوامها محال ,فمهما استعبدت سلطة الاستعمار من أهالي جزائريين لأهدافها فهناك دوما آخرون سوف يعملون والأمّة الجزائرية معهم لنيل الحرية ويكتب (هيهات أن تدوم الحالة الحاضرة على ما هي عليه، لأن روح النهضة قد إنغرس في عقول الأهالي والله متم نوره.وإن كانت الأمّة جاهلة فإنها عارفة بقدر الحرية) .[18]

ويعتبر الأمير خالد أداة التعليم ووسيلة الصحافة كأهم العوامل في تنمية الوعي للفئات الشعبية بحقوقها الاجتماعية والسياسية، كحق الانتخاب مثلا. يقول في نفس المقال: « أول وسيلة لتغيير الحالة التعيسة التي نحن نتخبط فيها هي اكتساب العلوم والمعارف بأي وجه كان، ونشر الجرائد لبث الأفكار والاطلاع على أخبار وتأديب الأمة وتعريفها بواجباتها وحقوقها وتنبيهها من غفلتها ونشر الآراء بين طبقاتها وتسطير الخطة التي تمشي عليها في أمورها المادية والمعنوية والسياسية وقواعد الانتخاب وأصوله وبعث أهل الشهامة والمعرفة والغيرة والسياسة إلى المجالس الشورية والتمسك برجال الحزم المريدين للإصلاح ورفع شأن الأمّة... ويجب الحث على الصناعة والتجارة والفلاحة والمسائل الاقتصادية ولكل ما ينقذ الأمّة من ورطة الفقر والبطالة ويرقيها إلى درجة السعادة والتربية، ولا نصل إلى هذا إلا بقبول نصيحة المخلصين وتأييديهم والأخذ بأيديهم ومساعدتهم على أعداء الله وأعداء الأمّة من أبناء جنسنا... الذين يريدون الإبقاء على المجالس الزجرية والقوانين المختصة بالأهالي. وإن أردنا النجاح

أعمالنا وتحسين حالنا ينبغي لنا أن نتوكل أو نعتمد إلا على أنفسنا ولنا في الشعوب الخاضعة التي خرجت من الظلمات إلى النور أسوة حسنة، فهل لكم يا قوم أن تعتبروا وتعملوا بالنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ؟... » [19]

وكان تأسيس جمعية " المؤاخاة الجزائرية " بمدينة الجزائر، في شهر فيفري 1922 بمثابة عمل واقعي مجسد للرؤية الإصلاحية التي تبناها الأمير خالد. فهو الداعي إلى إيجاد الفعالية بفضل الجمعيات التي يمكن لها أن تتحول إلى أحزاب سياسية، تستطيع المفاوضة والدفاع عن الحقوق في علنية تامة، لتحسين ظروف الشعب الجزائري فهي جمعية غرضها البحث عن الوسائل التي بها تتحسن الحالة الأدبية والعلمية والاقتصادية والسياسية المختصة بمسلمي القطر الجزائري والمدافعة عنها "[20].

وعند عرض برنامج هذه الجمعية في الاجتماع العام بالمسرح الجديد في شهر مارس 1922، لفت الأنظار، ولأول مرة، حضور أربعة آلاف (4000) شخص تحت رئاسة الأمير خالد، الذي ألقى خلاله خطابا باللغة العربية مذكرا بالتاريخ الحضاري للعالم الإسلامي، وللجزائر على الخصوص، ثم ألقى قصيدة هامة بعنوان « ذكرى للعاقلين وتنبيه للغافلين »، وكأنه استلهم العنوان من كتاب جدّه الأمير عبد القادر [21]. وفي تلك القصيدة تصوير للجمود ودعوة لليقظة وللإنتصار عليه ومما جاء فيها :

أهل الجزائر ما هذا الخمود وما هذا التأخر دون الناس كلهم
استيقظوا من سبات كاد يجعلكم بين الورى في الملاء سربا من النعم
علاكم الذل بعد العز وأسفي على تقهقر أسمى سائر الأمّم
أسلافكم تركوا مجدا يخلدهم ها فاقتدوا برجال الحرم والهمم

ثم يذكر بالثمار الحضارية وآثارها، التي لا تزال تحكي للأجيال المتتابعة مجد المسلمين بالأندلس وغيرها. وكيف أن المساهمة الحضارية أثرت في أوروبا ورقيها. لكن الأمل بالنسبة للجزائر، يتمثل في رأيه، في الشبيبة، التي توجه إليها حاثّا لها على تمثّل خطى الأسلاف، والاعتبار بالقرآن الكريم والمسارعة لطلب العلم :

إلى الشـبيبة أبدي النـــصح أرشدها فالله يحفظها من زلة القدم
سيروا على منهج الأسلاف واجتهدوا وسارعوا لاكتساب العلم بالقلم
روحي فداكم وددت النصح فاتــعظوا بما أتانا به القرآن من حكم
إن التـــفرق داء موصـــل بكـــم إلى الشقاق والخسران و النقم
وزينة الناس في الدنيا مـــعارفهم دين وصدق وإخلاص لربهم " [22]

2.1- جانب الإصلاح الإجتماعي والأخلاقي :

ظهرت في المقالات التي نشرتها " الإقدام " لهجة خطاب مباشرة في التنديد بالحالة الاجتماعية والأخلاقية للمسلمين الجزائريين. فإذا كانت الكتابات التي تنتقد هذا الوضع المزري، تتسم بهذه الصفة، فإنها تلقي باللوم والانتقاد على كاهل النظام الإستعماري, المسؤول الأساسي عن هذه الحالة التعسة وسوف نلاحظ تفجر غضب الأمير خالد، حينما عرفت الجزائر المجاعة في أرجائها، وهذا في بداية العشرينات من القرن العشرين. هذا الغضب المعبر عن الوطنية المخلصة، كاشفا مساوئ النظام الإستعماري، لدولة تتغنى بمبادئ حقوق الإنسان، لم يعرف منها الشعب الجزائري سوى البؤس والفقر والجهل، لمدة قرن من الاحتلال كما يقول في « الإقدام » في عام 1921 :

« مضى حين من الدهر منذ احتلت فرنسا القطر الجزائري وإلى يومنا هذا لم تهتد إلى سبيل السياسة التي تسلكه إزاء الأهالي. مضت إثني وتسعون سنة ولم نعلم ما هو قصد المستولي وكل يوم تتبدل السياسة مع تبدل أولي الأمر، على حين أن الأمة قد وصلت إلى أسفل درجة من درجات الهمجية والجهل والفقر والذل والإسفاف، أفرادا بلا أجسام بلا قلب ولا أفكار ولاحواس، تقودهم السلطة الإدارية أني شاءت وكيف شاءت، والعجب كل العجب في وقوع ذلك وجواز حكم دولة جمهورية مبنية دعائمها على الحرية والمساواة والمؤاخاة التي ما هي في الجـــزائر إلا ألفاظ هوائية لا تسمن ولا تغني من جوع ولا ترد بطش المتجبرين ولا ظلم الظالمين... [23]. ويمكن حصر أبعاد الخطاب الاجتماعي والأخلاقي في العناصر التالية:

1.2.1دعوة التعاون الاجتماعي :

في افتتاحية لجريدة " الإقدام " بعنوان: « فوائد إتحاد الأمة ومضار تنازعنا" كتبت تقول أن من أعظم الأسباب وألزم الوسائل لسعادة الأمة هو وحدتها التي تجعلها كالجسم الواحد إذا إشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء. وأما التفرق والتنازع في الرأي هما سبب الفشل ومجلبة الفساد، وتضيف الجريدة أن التعاون صفة تبعث الإنسان إلى مساعدة أبناء جنسه وإلى الإتحاد معهم للحصول على المنفعة العامة، وهذا هو الشعور بالوحدة الوطنية [24].

كانت المجاعة التي عرفتها البلاد آنذاك كما تقدم ذكره، سببا للتأكيد على هذه المبادئ الأخلاقية ذات البعد الاجتماعي، لتمتين روابط وتماسك الأمة الجزائرية في محنتها تلك بالعودة إلى القيم الإسلامية لاستلهام روح الإصلاح في هذا المجال. فكانت هذه الوضعية مناسبة لانتقاد أطماع المعمرين الأوروبيين وأعوانهم من الأهالي، الذين شاركوهم في نهب الأراضي الفلاحية للجزائريين، والذي كان له الوقع السلبي في تفاقم المجاعة، التي ذهب ضحيتها الكثير منهم. وانجرت عنها آفات اجتماعية وحالة من انعدام الأمن في كامل القطر الجزائري.هنا ثار الأمير خالد وطلب بغيرة وطنية من كل جزائري، ومن كل من له عطف على الإنسانية، الإسراع والنهوض لإغاثة المصابين الذين قتلهم الجوع وشردهم البؤس، وصور تلك الحالة

قائلا في مقال: " المجاعة ودواؤها [25]: « سنة متجددة و أسعار مرتفعة ومعيشة صعبة وتجارة كاسدة وحبوب منقطعة وأسباب الحياة متعطلة وجيوش الشتاء من أمطار وبرد وثلج ورياح زاحفة فأين المفر وما الحيلة. تا الله لقد ضاق المجال والناس في حيرة وحال ضنك والمجاعة عمت اليوم فكيف غدا. هل من مغيث الملهوف الذي لم يتدبر لعواقب الزمان لجهله المؤدي إلى الهلاك ولكن ليس هذا وقت الموعظة والتوبيخ بل وقت السعي لإنجاد التعساء من مخالب الفاقة التي حطت رحالها في ديارهم وأكواخهم وخيامهم، وألجأهم الجوع للنهب والسلب والفرار أفواجا أفواجا نحو المدن والقرى بقصد طلب ما يسد الرمق من أرباب الثروة والمقدرة... ».

هذه الحالة المتردية دفعت به إلى إستثارة الهمم، فدعا إلى تأسيس الجمعيات الخيرية في كل مكان، تخفيفا لوطأة هذه الظروف، جاء في نفس المقال: « ...إخواني أين الهمم العالية أين القلوب الرحيمة أين جود العرب الذي يضرب به المثل أين أهل الخير والإنسانية أين أهل الصدقات والتبرعات في سبيل الله ورسوله. هلموا وانقذوا إخوانكم من أعظم المصايب ألا وهو داء الجوع، فمن الواجب على الأهالي أن يؤسسوا في الحين جمعيات خيرية في المدن والقرى والبوادي لجمع التبرعات... ولكل دايرة أن تحفظ فقراءها وتقوم بشؤونهم الضرورية لقطع قلة الأمن المتزايدة التي سببها الحقيقي المجاعة... وأعلموا أن الله مع العبد ما دام العبد في عون أخيه، اللهم نزل الرأفة والحنانة في قلوب المسلمين وألهمهم الخير لإغاثة المنكوبين...».ولكي يسهم في تخفيف الأوضاع، قدم اقتراحات عملية، ونبه إلى بعض المظاهر الخطيرة والسلوكات المنحرفة للمسيرين الإداريين من المعمرين والأهالي الذين يذهبون ويحولون أرزاق المساكين والفقراء لوجهة مصالحهم. فاستنكر غياب العقاب القانوني ضد أمثال هؤلاء، قال في مقال " المجاعة بأبوابنا "[26]:«...إن حرارة الجوع والطرد من كل جهة والتعريض للشتاء والبرد لما يؤدي هؤلاء المساكين إلى الهلاك الشنيع.. يجب إحداث ملاجئ خيرية وإعطاء أعمال القادرين عليها لجلب الأمن الناس والأرزاق... ويلزم تسليف الحبوب في أقرب وقت ومن الواجب على الإدارة أن تتحقق من تمكين الحبوب رأسا لطالبيها... لكن أكثرها يحول عن قصده فلا يعاقب الإداريون، لكن اكثرهم لم يحس للعقاب ألما لانتسابهم لأهل القوة من المتوظفين أو لمشاركتهم لبعض الرؤساء منهم ... »

وخلال تلك المجاعة، عملت " الإقدام على نشر قوائم الضحايا من الجزائريين، وهذا بإنتظام. ونتيجة للحملة الإعلامية المصاحبة لها، تحرك جزء من الرأي العام في الخارج، خاصة بأوروبا، مما جعل الحكومة الإستعمارية نفسها، تعترف بآثار هذه المجاعة الخطيرة، وتعترف بإنتشار الأمراض الخبيثة وازدياد عدد الوفيات في أوساط الجزائريين " [27].

2.2.1 محاربة الإنحرافات والبدع الدينية:

ظهرت قضية تصحيح الانحرافات في السلوكات الدينية، عبر العديد من النصوص التي نشرتها جريدة " الإقدام ". من خلالها يتضح جليا، ارتكاز آخر يعتمده الخطاب الإصلاحي للأمير خالد، ألا وهو

السند العقائدي أو الروحي الذي يرى وجوب انتشاره بين الجزائرين. حتى يتم مقاومة تلك الإعتقادات الفاسدة والبدع المشوهة لصفاء التوحيد، والدافعة بالنفوس إلى الخمود بحيث تضعف في مواجهة تحديات الحياة.

فقد احتل موضوع إصلاح الزوايا في الخطاب الصحافي أهمية لدى الأمير خالد. فنراه ينشر مقاله الهام « في الزوايا خبايا » مستنكرا الانحراف والتقهقر اللذين عرفتهما الجزائر. وظهور النزاع السلبي فيما بينها، بعدما كانت مقصد الفقراء والمعوزين. وكأحد ركائز المقاومة ضد الاحتلال في الجزائر. زد على ذلك دورها غير المستهان فيه قديما في نشر تعاليم الإسلام في إفريقيا. وتفطن زعيمنا المصلح لسياسة الحكومة الإستعمارية، الهادفة لإستغلال هذه المؤسسات الدينية، يقول في هذا : « كانت الزوايا هي من أسباب نشر الدين الحنيف في الأركان الأربعة وبالأخص في إفريقيا والسودان فيا لها من واسطة حسنة لو دامت على ما كانت عليه. ولكن يا للأسف قد أصبح جل الزوايا في قطرنا الجزائري إلا النادر منها والحق يقال مبنية على الأغراض الشخصية وحب الرئاسة والتعصب وبث العداوة بين الطرق وحب الأفضلية والتزلف للحكام لنيل الوظائف والألقاب والوسامات...» [28].

ويتعجب من الذين يرجون من الإدارة الاستعمارية، تعيينهم كشيوخ للزوايا رغم أن الطريق إلى هذه المسؤولية لا دخل فيها لواسطة الإدارة أو الحكام. فالأمر هذا، في رأيه يتأتى بسلوك صراط العلم والعبادة والاجتهاد في حث الناس وتربيتهم على التوحيد الخالي من شوائب الشرك. وكأننا به هنا يستوحي بعض أفكار الأمير عبد القادر الذي تحدث عن مفهومه الحقيقي لمعنى الولاية وأولياء الله الحقيقيين' [29]

يقول الأمير خالد موضـــحا مفهومه ومظهرا نفاق بعض شـــيوخ الزوايا، أن الطريق لا يكون « إلا بالعلم والزهد والتجرد للعبادة وفعل الخير وترك الدنيا والسعي للآخرة مع السند الصحيح في تلقين الطريق وإرشاد الناس إلى معرفة الله فيحترمه الخلق ويعظمونه ويأتون إليه من كل جهة وناحية لزيارته... ومن البعض من هؤلاء المشايخ عند حلولهم بالعاصمة يفعلون الأفعال القبيحة التي تغضب الخالق... وعند عودتهم لزواياهم يتظاهرون بالورع والصلاح وحيث أنه جل مريديهم بسطاء العقول مقيدون بالجهل البسيط والمركب فإنهم يقعون بســـهولة في شرك هؤلاء الشيوخ المتـــظاهرين بالّدين والصلاح وفي بواطنهم النفاق والطلاح... »[30].

ويعتقد أنه لا يمكن لأمة أن تترقى وتتقدم إذا سيطر الجهل، وعمت البدع الدينية المنحرفة. وبالتالي حلت خشية والخوف من " الشيوخ " في محل خشية الله تعالى، وتحولت الأضرحة إلى أماكن مقدسة تقدم لها القرابين. لهذا على مسيري هذه الزوايا الدينية والتربوية مسؤولية تبصير الناس بواجباتهم الدينية الحقة، وتحفيزهم على تحصيل العلم. جاء في هذا :" كيف يرجي ناشدتك الله ترقي أمّة عم فيها الجهل والخديعة والحسد والغيبة والنميمة والتعصب الجاهلي والتمسك بالبدع حتى نسيت ما أمر به الخالق واتبعت المخلوق واعتقدت أن الخير والشر في أيدي شيوخها وعبدت الأضرحة..... إذا صلح القلب صلح الجسد، فيا هل ترى يتسني صلاح القلب؟ نعم إذا أسند الأمر إلى أهله... وعرف كل شخص مقامه

وسعى في الخير للأمة وترك الشيوخ حب الدنيا والتزلف للحكام والوقوف بأبوبهم واشتغلوا بواجباتهم الدينية وحث الناس على التواد... واكتساب المعارف وإصلاح أمور الدين والدنيا معا. والتمسك بالمعبود وإرجاع الأمور كلها إليه، حينئذ ترقى الأمة وتصلح أحوالها. ولكن " إنك لا تـــهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء "[31].

ومن الإنحرافات التي إنتقدها الأمير خالد، تلك المتعلقة بالنخب الدينية والثقافية في البلاد، اعتبارا لدورها في مجال الإصلاح.ففي هذا الجانب، يركز على ضرورة التمسك بالقيم الإسلامية الصافية، لأنه من المفروض في ممثلي الأمة خاصة، إحترام التقاليد الأصيلة لشعبهم، لا الذوبان في زخرف العادات الغربية التي تتنافى ومقومات الأمة الجزائرية.وفي مقال بعنوان " حال نواب الأمة " استنكر بعض سلوكهم قائلا : « ... لا تريد الأمة نيابة من لا يعرف مقتضيات دينها القويم، ولا يحترم شعاير تبيها الكريم صلى الله عليه وسلم- ولا يرعى ذمام عوايدها المقدسة أو يريد أن يبدلها بعواىد غير عوايدها.. فلذلك أنابت الأمة عنها رجالا جعلوا المحافظة على الدين إمامهم، واحترام العوايد الصحيحة زمامهم... »[32] لكنه لا يقف عند حد سلوكات السياسيين هؤلاء، إنما نراه ينتقد فئة علماء الدين الذين تغاضوا عن وظائفهم الدينية والتربوية، فأهملوها، وإهمالهم هذا ناتج عن خوضهم دروب السياسة، حتى عادوا أعوانا للإدارة الاستعمارية، وهكذا في مقال هام بعنوان: « حول الذين يجعلون الدين وسيلة لنيل المصالح الدنيئة » كتب: « بينما نرى أناسا يضحون بأنفسهم في الدفاع عن حقوق أبناء جلدتهم ويقتحمون الصعوبات لإبطال الباطل ولو كره المنافقون نشاهد أشخاصا تزيوا بزي العلماء والصالحين وأهملوا وظيفتهم الدينية وتسابقوا إلى الوشي والنميمة في إخوانهم حتى زاحموا الشرطة السرية في وظيفتها وهم يتبجحون أيضا على صفحات الجرائد بمس أعراض القائمين بخدمة الأمة تلويحا لا تصريحا خوفا وجبنا وأباحوا لأنفسهم ما حرمه الله وأفتوا بما هو مخالف للشريعة الطاهرة، وخاضوا بحر السياسة لنصرة أمثالهم وإرضاء خاطر بعض الموظفين من الأوروبيين الذي يشاركونهم في الأفكار الشخصية فهل يمكن ناشدتك الله أيها القارئ المنصف أن نقتدي بمثل هؤلاء...؟ [33]

لكنه وضّح في مكان آخر من كتاباته الإصلاحية، احترامه وتقديره لفئة من علماء الدّين، وهو يصرّح بأنه متشبع بثقافته العربية – الإسلامية وكذلك بالثقافة الغربية المتنورة. فإخلاصه لأمته ودينه يحتم عليه الإدلاء بآرائه الإصلاحية بكل حرية، وفي إطار ما يسمح به القانون، دفاعا كذلك عن المخلصين لقضية الشعب الجزائري. جاء في نفس المقال:" كنا من الرافعين لقدر المتظاهرين بالورع المخفين للنفاق وقدرناهم حق قدرهم ولكنهم جهلوا قدرهم وباعوا الدين بالدنيا وأساءوا لمن أحسن إليهم. ولما كان الدين النصيحة فقد وجب علينا نحن أول من يتحتم عليهم العمل بتعاليمه أهل البيت أن ننبه الغافلين المغرورين يزعمون أنهم عاملون بالوسائل اللينة المحمودة بصفتهم من حزب « فرنسا الإسلامية» مع أن أعمالهم هي التذلل والتزلف لقضاء أغراضهم الخسيسة. أما فنحن نعتبر أنفسنا أهل الشهامة

العربية ولا فخر وقد رضعنا الأفكار الحرّة في المدرستين العربية والفرنسوية وقدمنا للدولة الفخيمة خدما شريفة وبذلنا النفس فلنا الآن أن نعرض أفكارنا بكل حرية مع احترام القوانين. والأمة هي الحكم العدل بيننا وبينهم لأن ألسنة الخلق هي أقلام الحق والعاقبة للعاملين الصادقين المخلصين لله والأمة والدين. [34]

3.2.1 نقد التقليد الأعمى :

يرى الأمير خالد أن من أهم وسائل تحسين حالة الشعب الجزائري، هو تربيته على العقيدة الصافية، الدافعة إلى الإجتهاد وإلى الأمل في التغيير. وهذه الوسائل تحتاج إلى التأكيد على الأصالة الفكرية التي تنكر التقليد والمحاكاة. الأصالة إنما تستوحى من منابع الإسلام الصافية ومن لغة دينه التي هي مقوّم آخر لشخصية الأمّة، جاء في مقاله المعنون: " ديننا وسياستنا لا يفترقان: «إذا أردنا تحسين حالتنا وإنقاذنا من غياهب الجهل والذل والخذلان فلا يسعنا إلا الرجوع إلى ما كان عليه الأوائل من التمسّك بالدّين لإصلاح دنيانا وحالتنا الاجتماعية والاجتهاد في اكتساب المعارف ولغتنا العزيزة التي أنزل بها القرآن هدى ورحمة للناس وما حياة الأمّة إلا بحياة لغتها... [35]

وتأكيده في خطابه على عامل الدين، في الحفاظ على الذاتية الأصيلة، ولو سايره التطور والتمدن، إنما هو ضروري لكل أمة. وذكر بالمكانة التي يشغلها هذا العامل لدى الدول الأوروبية. فيأتي بأمثلة متعددة حول فرنسا المتزعمة لتيار فصل الدين عن الدولة، إلا أنها تحرص على إقامة العلاقات الدينية مع رئيس الكنيسة الكاثوليكية، وهذا حفاظا على سياستها في العالم المسيحي وفي العالم الإسلامي ومع هذا فهي تحاول دائما الانتصار والميل للعنصر المسيحي أنى كان، على حساب العنصر المسلم.وهكذا نلاحظ هذا التفطن من قبل الأمير خالد للواقع الحضاري الأوروبي في تعامله مع الوسط الحضاري المسلم. فينصح الشبيبة الجزائرية إلى عدم التباهي بمظاهر التمدن السلبية معتقدة أن التقدم إنما يكون في اتيانها، يقول :« إن شبيبتنا التي هي محط آمالنا قد غرتها زخرفة الحياة الدنيا فأصبحت تنظر بعين الكمال ما هو مخل بالدين وهادم لشعائر المسلمين مع أن التمدن ليس في شق شعر الرأس وقص الشارب على النمط الأمريكاني وليس ما هو مظهر للعورة وشرب الخمور والتظاهر بقلة الحياء ومخالطة الحانات والفاجرات والملاهي المفسدة للأخلاق...» [36].

فالتقدم الحقيقي عنده يستند إلى عناصر تشكّل هي ذاتها المقوّمات التي ينبغي المحافظة عليها من دين، واعتزاز بالشخصية ولغة، وغيرة على الحق، تلك التي تمد الفرد خصوصيته الحضارية.

ويناقش قضية تقدم الغرب رغم ابتعاده عن الدين، فيرى أنّ مردّ هذه الحالة ناتج عن التغيير والتكييف الحاصل في أعراف المدنية حسب الأفكار السائدة في المجتمعات، رغم أن هذه الأفكار غير متضمنة في شرائعه الدينية.في حين أن الإسلام كشريعة يتضمّن بذور التكيّف والتقدّم الحضاري، فيبقى على أبنائه الاجتهاد المستمر وطلب المعارف باستمرار، والأمل في التغيير باق لديه، رغم أن الشبيبة

المقلدة تنحو منحى مغايرا في النظر لمظاهر التقدم الأوروبي لأنها في الحقيقة تتألم لواقع شعبها وتغار على مصير البلاد، فيجب إذا تبيان لها طريق الإصلاح :

« ... إن التمدّن علو الهمّة والمحافظة على الدّين والشعائر الإسلامية والافتخار بالجنسية واللغة ومخالفة النفس واكتساب المعارف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاقتداء بأهل الخير والصلاح والإصلاح... فلم ترث هذه الشبيبة من أسلافها إلا ما كان سبب انحطاط الدول الإسلامية وهي لا تتفاخر إلا باللغات الأعجمية نابذة لغتها التي هي أبها اللغات وأفصحها. ومن العجيب أن هذه الشبيبة التي لم تتّبع إلا القبيح من التمدّن الأوروبي تحسّ بإحساساتنا وتتألّم لألمنا وتتأثر من انحطاطنا وذلنا وهي صاحبة شعور وغيرة ومع هذا فإنها لم تهتد إلى سلوك الطريق الموصلة، لإصلاح حالتنا التعسة التي نحن نتخبط فيها فما العمل إذن أو مالنا إلا اليأس وقطع الأمل ؟ كلا بل يجب علينا نصحها وإنذارها وإرشادها عسى الله أن يهديها سواء السبيل ويلهمها ما فيه سعادة الأمّة ... »[37].

إنّ النخبة الإصلاحيّة يجب أن تكون، نموذج الاقتداء بالنسبة للشبيبة الجزائرية، أمل الغد الجزائري، والثبات على المبادئ الأخلاقية الحقة، كالإصرار والعزيمة في المضي قدما في النضال السياسي والإصلاحي، في خضم الصراع والتحديات مع النظام الاستعماري، هذا الثبات بالنسبة للأمير خالد نابع من التوكل على الله وحده وعلى المبادئ الإنسانية، وهو ضروري : «... يوجد الآن أناس تربوا على الفكر الحر في المدارس الفرنسوية وفي جميع المصارعات لا بد وأن يكون كما يقول المثل العربي : (يوم لك ويوم عليك) نحن مسلمون متوكلون على الله وخاضعون لقضائه وقدره والرجاء ومثابرتنا ومداومتنا على العمل هو قوتنا ومن أراد إخفاء الشمس بالغربال فقد ضيع وقته سدى. نحن متوكلون على الله وعلى الحق وعلى العدل ولا شك في فوزنا القريب العاجل ضد سياسة الجبر والخنق... » [38]

إن التحلي بهذه المبادئ الأصيلة التي يلح عليها في خطابه الصحافي، لم تكن مجرد رؤية مثالية، بل كثيرا ما يجسدها في الميدان العملي الإصلاحي، بأبعاده السياسية والدينية. من هنا جاء نموذجه كمثل بارز، أحس الاستعمار بخطره على مصالحه وحتى على وجوده فوق الأرض الجزائرية. أصبح رمزا للمطالبة بالحقوق السياسية وبالإصلاحات الاجتماعية و الاقتصادية، ولقد قارن عبد الحميد بن باديس جهوده و مساره بمسار الزعيم المصري سعد زغلول وبحركة الوفديين بمصر[39].

وعندما فاز بالانتخابات التي جرت سنة 1921م، يكتب المثقف والصحافي الجزائري " أبو اليقظان " مقالا بعنوان:" تهنئة الجزائر" وهذا في جريدة "المنير" التونسية، مؤيدا فيه المشروع السياسي والإصلاحي الذي خطّه الأمير خالد، ومشجّعا حركته في السير نحو الإصلاح وعدم الفشل والخضوع لضغوطات المعارضين. واعتبره الأمل الحقيقي للأمة الجزائرية، التي أصبحت بفضله مثالا للاتحاد والوئام ." [40]

4.2.1 ترقية التعليم واللغة العربية:

وشكّلت كتابات الأمير خالد الصـــحفية منعرجا حاسما في تناولها لهذا الموضـــوع الحيوي بالنسبة

للجزائريين أنذاك.

والمقصود هنا هو الخطاب الانتقادي والذي فحواه تحميل مسؤولية تدنّي مستوى التعليم لدى الجزائريين للنظام الاستعماري. وكشف الأبعاد الثقافية من خلال العمل على تجنب تعليم اللغة العربية، وحصرها فقط في المجالات التي تخدم مخططات هذا النظام. لكن بالموازاة يطالب الأمير خالد الفئات المثقفة، وحتى الأثرياء من المسلمين، بأداء دورهم لترقية التعليم الحر واللغة العربية، التي وصلت إلى درجـــة يرثى لها من جـــراء سياسة التجهيل، رغم أن هذه الإدارة تابعة لدولة شـعارها الحرية والمـــساواة والمؤاخاة.

في مقال بعنوان: "بماذا سادوا" يؤكد أن السّيادة الحقيقية إنما تتحقق، عندما يغدو العلم الهاجس الرئيسي، خروجا من غياهب الجهل الدينية والدنيوية. ثم يذكر بالقفزة الحضارية التي حققها العرب المسلمون في هذا المضمار. ولا ينسى ما لتحصيل العلوم من دور في إيجاد الوعي الفكري والسياسي للشعوب، قال : «من المعقول أن الجهل داء عضال يسوق المرء للتعصب والكفر والكبر وارتكاب المعاصي والمحرمات وجهل الواجب على الإنسان نحو الخالق والمخلوقات ويودي للكفر والعياذ بالله، ودواؤه العلم فهو المرشد لمعرفة الواجبات الدينية والدنيوية، والعلم شرف المرء وزينته وعزه والمنقذ له من بحر الظلمات وقوت القلب وسبب الوجدان وروح الحياة والعمران وعين التقدم والتمدن وميزان العدل وأسباب الحرية والمساواة والأخوة... قال تعالى : « يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم " أي أكثركم علما وأحسنكم عملا... » [41].

ولكي يحرك النفوس للعمل، يحمل جزءا من انحطاط التعليم، الجزائريين أنفسهم. فيحث الآباء على توجيه الأبناء لاكتساب مختلف المعارف، ثم يلتفت إلى الشبيبة الجزائرية، ويخصها بندائه للتزاحم على مراكز أو مؤسسات التعليم:« ... أيها الأولاد وأيتها الشبيبة شمروا على ساعد الكد والمجد وتزاحموا على أبواب المكاتب والمدارس والكليات لتجنوا ثمرات العلوم وما يرفع قدركم... وأعلموا أنكم خلقتم للعلم والعمل لا للجهل والكسل ولا تسارعوا لأبواب الحانات ومحلات اللهو... أهل ملّتي هل من آذان صاغية وأعين ناظرة، انتهوا عما نهاكم عنه الله واتبعوا ما أمركم به رسوله – صلى الله عليه وسلم – جعلني الله واياكم من الفائزين في الدارين بالصلاح والإصلاح... »[42].

في موضع آخر يوجه الأمير خالد انتقادا حادّا للإدارة الاستعمارية التي لم تعمل الكثير في ميدان التعليم، ويبين عبر الأرقام تدنّي نسبة المتمدرسين من الجزائريين بالنظر إلى عدد السكان، ثم يستنكر سياسة غلق المدارس القرآنية بحجة اعتبارها من دوافع إيجاد التعصب أو التطرّف، حيث يقول: « أمّا التعليم فالتقرير الرسمي يقول أنه يوجد في المدارس الفرنسوية نحو ثلاثين ألف (30.000) تلميذ أهلي ما بين ذكور وإناث مع أن عدد الأهالي خمسة ملايين (5.000.000) نسمة، والمدارس القرآنية تغلق

بزعم أن التلاميذ لا يتعلمون فيها إلا التعصب، فجلّ البنات والأولاد يتجوّلون في الأزقّة متشردين ويتربون على قلة الحياء والسرقات والجنايات، ومدينة الجزائر فقط هي أقوى دليل على ما نقول حيث أن فيها فئات من الأولاد منتشردين بلا حرفة ولا قراءة فإذا كان الأمر كذلك في العاصمة، فكيف تكون حالة أولادنا في دواخل القطر...» [43].

ثم ينتقد هذه السياسة الإستعمارية التي تعمل على هدم اللغة العربية والدين الإسلامي، بإهمالها لبناء المدارس ولعدم إدراج اللغة العربية في المقررات، وبهذا فهي غير رسمية : « أما اللغة العربية فإنها غير رسمية في المدارس وليس لها معين معلوم، وعلى كل فإن الدروس التي تلقى خارج البرنامج المدرسي تكون بالعربية الدارجة لا الفصحى »[44].

ولكن لماذا يا ترى تنتهج الإدارة الاستعمارية هذه السياسة ؟ يرى الأمير خالد أن البعد الآخر لها يكمن في تخوّفها من الحركة الفكرية أو الثقافية المؤدّية لإنتشار الوعي واليقظة بين أفراد الأمّة، وهذا بدوره يستثير تيار المطالبة بالحقوق السياسية وغيرها، وبالتالي تنامي حبّ التحرر من مختلف أشكال الظلم، لهذا لا توجد سوى مدارس ثلاثة لتعليم الفرنسية والعربية الفصحى، قصد تخريج أعضاء المحاكم الشرعية فقط. ويتأسف عدم وجود أية مدرسة إبتدائية حرة آنذاك (1920) لخمسة ملايين جزائري، بينما هي منتشرة في الدول المتقدمة. لهذا طلب على مستوى المجالس المنتخبة الممثلة للشعب في البلديات بفتح مدارس حرة، قال في مقال بعنوان " العلم والتعليم":« ...كنا نظن أن المجلس المالي يوافقنا على تأسيس مدارس ابتدائية فرنساوية للأهالي في المدن والقرى والبوادي وجعل دروس بالعربيّة الفصحى ولكن خاب أملنا حيث أن المجلس المذكور وافق على بناء مدارس لتعليم أولاد المسلمين خصوصا الصنايع... لخدمة المعمّرين، أما اكتساب المعارف فإنه يؤدّي إلى حرية الأفكار ومعرفة قدرالنفس وقيمة الخدمة ورفض الظلم والتعدي ومدافعة الإنسان عن حقوقه... »[45].

ولكي يتمّ طرح قضية التعليم، بشكل واضح طالب بضرورة وجود ممثلين للشعب الجزائري في البرلمان الفرنسي. خاطب في « الإقدام » مسؤولي الإدارة الحكومية قائلا : « ... ألفتوا نظركم إلى جارتنا تونس فقط، فإنها وإن ضمّت بين ضلوعها أقل من مليونين ولكن فيها ما ينيف عن إثني عشرة مدرسة أهلية ما بين إبتدائية وثانوية وعليا. فعلى هذه النسبة يلزم أن يكون للجزائر ثلاثون مدرسة، ولكن واخيبتاه لم تكن منها فيها واحدة... »[46].وقال في تأكيده على المدارس الحرة :« ... فنحن الجزائريون والحق يقال حياتنا جسمية... وشجرة حياتنا قد كساها الذبول ولم تتعهد بالسقي الحقيقي العلمي الذي يرد لها الحياة المقصودة وليس الحق في هذا القصور على العامة الجاهلة بل على الخاصة الذين يهدمون العالم كله لأجل بناء بيت لهم... »[47].

كان الأمير خالد متفطنا للسباق الحضاري الذي أخذ يتحرك في العالم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وكيف أن أساسه يكمن في التعليم العصري.

خاتمة

كانت جريدة "الإقدام" أحد المنابر الأساسية والمفضلة للأمير خالد، في عرض أبعاد مشروعه للإصلاحات السياسية. ومن جهة أخرى فضاء إعلامي لنقد سياسة الإدارة الاستعمارية ونشر خطابه الإصلاحي. لقد توصلنا في مقالنا التحليلي هذا وتبعا لمقاربتنا من تمثل أبعاد موضوعاتية ,مرتبطة بالسياق الاجتماعي والثقافي للشعب الجزائري خلال الفترة الاستعمارية :

- التأكيد على دور الصحافة في النضال الإصلاحي والسياسي، للتعبير أكثر عن حقوق الشعب الجزائري، ويكون مبدأ الاعتماد على النفس جوهريا في الجهود الإصلاحية، لهذا تم الإلحاح على إنشاء جمعيات للدفاع عن الحقوق و حمايتها.
- في خطاب الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي، ظهرت مواضيع دعوة التعاون الاجتماعي ومحاربة الانحرافات والبدع الدينية، مع طرح قضية التقليد الأعمى. إذن هناك إستلهام للقيم السامية للإسلام تدعيما للشعور بالوحدة الوطنية، وارتكاز على الجانب الروحي والعقائدي، لهذا تم انتقاد علماء الدين الذين خاضوا دروب السياسة فاستعملوا من طرف الإدارة الاستعمارية، ولم تسلم من هذا الأسلوب بعض الزوايا، ولمسنا كذلك التأكيد على الأصالة الفكرية التي لا تنزع إلى التقليد، خاصة تقليد الـــمظاهر السلبية من التمدن والـــتقدم. فالإســـلام كشريعة تحـــمل بذور التكيف مع التـــطور الحضاري.
- تضمن الخطاب الإصلاحي قضية التعليم واللغة العربية في مختلف النصوص الصحافية، . حيث حمل « الأمير خالد » النظام الاستعماري مسؤولية تدني كل من مستوى التعليم وعدد المتمدرسين بالنسبة للجزائريين، وكذلك انتقد السياسة التعليمية الرافضة لإدراج اللغة العربية في التدريس. وهذا يعبرحسب توجه خطابه عن تخوف الإدارة الاستعمارية من إمكانية انتشار الوعي الفكري والسياسي التحرري. لهذا كان من المطالب السياسية التي رفعها الأمير خالد تنفيذ قانون التعليم الإجباري للمسلمين وحرية إنشاء مدارس التعليم الحرة.

الهوامش:

1- khaldi(abdelaziz) :Le problème algérien devant la conscience démocratique .ANEP.Alger 2006 ,P :49-55 .

2- حول أهم محطات النضال السياسي للأمير خالد انظر : محفوظ قداش: الأمير خالد, وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية, ديوان المطبوعات الجامعية –الجزائر- 1987 .

3- Kaddache (Mahfoudh) : Histoire du nationalisme algérien, (1919- 1951) Alger, ENAL, 1993, T1, P: 97-126.

4- إحدادن (زهير): الصحافة الاسلامية الجزائرية, من بدايتها إلى سنة 1930 – المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر- 1986 ص33.

5-Mucchilli(ALEX) : Dictionnaire des méthodes qualitatives en sciences humaines, ARMAND COLIN , P :205. 3 édition 2009.

6- KIENT (Albert) : Pour analyser les media : l'analyse de contenu, Collection medium, mame1971 , P : 158.

7- شومان (محمد): تحليل الخطاب الإعلامي: أطر نظرية و نماذج تطبيقية- الدار المصرية اللبنانية – القاهرة 2007 , ص 42 .

8- الإقدام, مقال: الجرائد ومنافعها, العدد: 36 , 22 جويلية 1921 .

9- في العدد الأول من السنة الأولى لصدور الطبعة العربية لجريدة " الإقدام" أعلنت (10 سبتمبر 1920) نيتها إصدار جريدة يومية إخبارية أخرى إضافة للإقدام , للدفاع عن مصالح الجزائريين . مع العلم ان "الإقدام "بالفرنسية صدرت في:7 مارس 1919 .

10- إحدادن (زهير): الصحافة المكتوبة في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بدون تاريخ، ص ص 37-36

11- الإقدام العدد: 109 – بتاريخ 10 ديسمبر 1922 .

12-Kaddache (M) : Histoire du nationalisme algerien , T1, P104.

13- أنظر شهادة الصحافي الكبير أبو اليقظان عن مقدرة وكفاءة الأمير خالد الصحفية في: الزبير سيف الإسلام: تاريخ الصحافة في الجزائر, الصحافة العربية بين الحربين 1920- 1940, الصحافة اليقظانية – المؤسسة الوطنية للكتاب , الجزائر , 1985, ص 156 .

14- الإقدام, مقال: إلى الوالي العام , العدد 22, بتاريخ 25 مارس 1921 .

15- الإقدام, العدد 60 , بتاريخ 6 جانفي 1922 .

16- الإقدام, إفتتاحية العدد 101 , بتاريخ 30 أكتوبر 1922 .

17- الإقدام, مقال: (و لكم في رسول الله إسوة حسنة), العدد 58, 23 ديسمبر 1921 .

18- الإقدام, مقاله: الحقيقة , العدد 120 , 02 مارس 1923 .

19- الإقدام, افتتاحية العدد 101 , بتاريخ 30 أكتوبر 1922 .

20- الإقدام, العدد 63 , بتاريخ 03 فيفري 1922 .

21- كتاب الأمير عبد القادر: ذكرى للعاقل وتنبيه الغافل, نشر دار اليقظة العربية, دمشق .

22- نشرت القصيدة بجريدة الإقدام في العدد 72 , بتاريخ 21 مارس 1922, كان الأمير خالد قد ألقاها أثناء اجتماع عام بالمسرح الجديد (العاصمة) .

23- الإقدام, افتتاحية العدد 101, بتاريخ 30 أكتوبر 1922 .

24- الإقدام, مقال : فوائد إتحاد الأمة ومضار تنازعها , الأعداد 41 + 42 (أوت 1921).

25- الإقدام, مقال: المجاعة و دواؤها, العدد 09, بتاريخ 05 نوفمبر 1920 .

26- الإقدام, مقال: المجاعة بأبوابنا, العدد55 , بتاريخ 02 ديسمبر 1921 .

27-In : Kaddache(M) : Histoire du nationalisme algerien , T1 , P27 .

28- الإقدام , مقال: في الزوايا خبايا, العدد 122, بتاريخ 16 مارس 1923 .

29- أنظر: الأمير عبد القادر: المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد, دار اليقظة العربية, دمشق, 1966 , الجزء 1 , ص 134 – 135 .

30- الإقدام, مقال: في الزوايا خبايا, العدد 122 , بتاريخ 16 مارس 1923 .

31- الإقدام, مقال: في الزوايا خبايا, العدد 122 .

32- الإقدام, مقال: حال نواب الأمة, العدد 03, بتاريخ 01 أكتوبر 1920 .

33- الإقدام, مقال: حول الذين يجعلون الدين وسيلة لنيل المصالح الدنيئة, العدد 69, بتاريخ 10 مارس 1922.

34- الإقدام , مقال: حول الذين يجعلون الدين وسيلة ... , العدد69 .

35- الإقدام, مقال: ديننا وسياستنا لا يفترقان, العدد 90 , بتاريخ 04 اوت 1922 .

36- الإقدام , مقال: ديننا وسياستنا لا يفترقان, العدد 90 .(1922)

37- الإقدام , مقال: ديننا وسياستنا لا يفترقان, العدد 90 .(1922)

38- في الإقدام, العدد 100 , بتاريخ 13 اكتوبر 1922 .

39- في مجلة الشهاب, فيفري 1936, عن محفوظ قداش: الأمير خالد, وثائق وشهادات (مرجع سبق ذكره) ص 193 .

40- أعادت صحيفة الإقدام نشر مقال أبو اليقظان – تهنئة الجزائر – في العدد, بتاريخ 05 اوت 1921, مع تعليق الأمير خالد .

41- الإقدام, مقال: بماذا سادوا, العدد 02, سنة 1920 .

42- الإقدام, مقال: بماذا سادوا, العدد 02, سنة 1920 .

43- الإقدام, افتتاحية العدد 101, بتاريخ 30 اكتوبر 1922 .

44- ألقى الأمير خالد محاضرة بفرنسا, في جويلية 1924 في نفس توجه الخطاب, أنظر محفوظ قداش: الأمير خالد, وثائق و شهادات, (مرجع سبق ذكره) ص 161 .

45- الإقدام , مقال: العلم والتعليم, العدد 12, بتاريخ 30 نوفمبر 1920 .
46- الإقدام , مقال: العلم والتعليم, العدد 12, بتاريخ 30 نوفمبر 1920 .
47- الإقدام , مقال: العلم والتعليم, العدد 12, بتاريخ 30 نوفمبر 1920 .